١٤- اعدلوا هو أقرب للتقوى

- مقدمة
- حرمة الدماء
- المساواة بين الناس

«**المساواة في القرآن** - المساواة عند النبي ﷺ - المساواة عند الصحابة»

- الخطبة الثانية

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

أمر مولانا بالعدل لأن العدل من دعائم عمار الكون وصلاح العباد، لذلك قال مولانا عز وجل:

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الحديد: ٢٥].

ومولانا عز وجل إذا فرغ من حساب العباد فيما يتعلق بحقوقه سبحانه وتعالى أمر لدواوين المظالم أن تُنصب للقصاص وأداء الحقوق . .

وفى مسند أحمد بسند صحيح من حديث أبى ذر رضي الله عنه أن النبى ﷺ رأى شاتين تنتطحان فقال لأبى ذر: «**يا أبا ذر، هل تدرى فيما تنتطحان؟**» قال: لا . . . فقال النبي ﷺ: «**ولكن الله يدرى وسيقضى بينهما يوم القيامة**».

وروى ابن جرير الطبرى بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال:

إذا كان يوم القيامة مُدَّ الأديم، وحُشِر الدواب والبهائم والوحش، ثم يحصل القصاص، فيقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء نطحتها . . فإذا فُرغ من القصاص بين البهائم والدواب قال لها المولى عز وجل: كوني ترابًا، فتكون ترابًا، فعندئذ يقول الكافر: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبإ: ٤٠].

فإذا كان المولى عز وجل يأخذ الحق للدواب والبهائم، فهل سيترك حقوق العباد؟.

فيا من دعاك منصبك . . ويا من دعاك مالُك . . ويا من دعاك سلطانك . . ويا من دعتك قدرتك على ظلم الناس، والهروب من القصاص، تذكَّر أن الله تعالى أكبر وأقدر منك . . تذكَّر أن هناك محكمة ستقف بين يديها . .

حرمة الدماء:

عندما غاب العدل، وغاب الردع، وغاب القصاص، رخصت الدماء وأصبحت بلا حرمة، وكل يوم نسمع عن دماء تسفك، وجرائم وصلت إلى حد القتل لأتفه الأسباب، وبلطجة وترويع للآمنين، وانفلات واضح للعيان . .

وقد تنبأ النبى ﷺ بهذه المأساة، وأنها من علامات الساعة، فقال ﷺ:

- «**إن بين يدى الساعة لأيامًا يكثر فيها الهرج**» والهرج: القتل». البخارى.

وفى رواية: «**لا يدرى القاتل فيما قَتل، ولا يدرى المقتول فيم قُتل**». مسلم.

إن للدماء حرمة عظيمة عند مولانا عز وجل لذلك فهى أول شىء يقضى الله فيه بين العباد . . ففى الصحيحين من حديث ابن مسعود أن النبى ﷺ قال: «**أول ما يُقضَى فيه بين الناس يوم القيامة: الدماء**».

ولا تعارض مع الحديث الصحيح: «**أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة**» . . فالصلاة أول حق لله يُحاسَب العبد عليه، والدماء هى أول حق للعباد يقضى الله فيه . . لذلك جمعت رواية النسائي بين الأمرين في لفظ واحد: فقال النبى ﷺ: «**أول ما يُحاسَب عليه العبد يوم القيامة الصلاة، وأول ما يُقضَى فيه بين العباد فى الدماء**». النسائى والألبانى فى السلسلة الصحيحة.

قال رب العزة سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١].

والحق بيَّنه النبى ﷺ فى حديث فى الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه فقال ﷺ: «**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزانى، والتارك لدينه المفارق للجماعة**». الصحيحان.

أما فى غير هذه الحالات الثلاث فإن قتل النفس بغير حق أمر تشيب له

الرؤوس . . وتدبَّر يا مَن تظن أن الأمر ينتهى بإفلاتك فى الدنيا . . تدبر قول مولاك عز وجل:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النِّساء: ٩٣].

اسمع يا من تظن أن الأمر ينتهى بإفلاتك في الدنيا، يقول النبي ﷺ:

«**كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا مَن مات مشركا أو قتل مؤمنًا متعمدًا**».

أحمد وأبو داود والنسائى وصححه الألبانى.

اسمع يا من تظن أن الأمر ينتهى بإفلاتك فى الدنيا ﷺ:

«**قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا**». النسائى وصححه الألبانى.

ربما يقول قائل: إن الآيات والأحاديث قد تحدثت عن قتل المؤمن فقط، أما غير المؤمن فقتله مباح ودمه مستباح . . أبدًا يا أخى . .

يقول المولى عز وجل:

﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المَائدة: ٣٢].

وقال النبي ﷺ:

«**من أمَّن رجلا على دمه ثم قام فقتله فأنا بريء من القاتل وإن كان المقتول كافرا**». النسائى وصححه الألبانى.

من أجل ذلك يأتي كل قاتل يوم القيامة إلى أرض المحشر، ويأتي مَن قتلهم هذا القاتل، الذي قتل فردًا أو الذي قتل جماعة . . أو الذي قتل أكثر أو قتل أقل . .

يأتى المقتول وقد تعلق برقبة القاتل وأوداجه أى عروق رقبة المقتول تشخب دمًا، ويوقفه بين يدي الله تعالى ويقول المقتول لرب العزة:

يا رب سل هذا القاتل فيم قتلنى؟.

يقول النبي ﷺ:

«**يجيء المقتول متعلقًا بالقاتل يوم القيامة، وأوداجه تشخب دمًا يوقفه ويقول: يا رب سل هذا القاتل فيم قتلنى**». النسائى.

المساواة بين الناس ..

والله الذى لا إله إلا هو ما ضاعت الأمة ولا وهنت النفوس ولا ضعف الانتماء إلا بعد أن ضاع العدل وضاعت المساوة بين الناس .. أصبح الفارق كبيرًا والبون شاسعًا بين القوى والضعيف .. وبين الغنى والفقير .. وبين صاحب السلطة والرجل البسيط الذى لا حول له ولا قوة ... والمساوة بين الناس هى من دعائم هذا الدين كما أسلفنا.

المساواة فى القرآن الكريم ..

يقول مولانا عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحُجرَات: ١٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ [النِّساء: ١].

المساواة عند النبى ﷺ:

كان من آخر ما وصى به النبى ﷺ فى حجة الوداع تأكيدًا لمبدأ المساواة بين الناس:

«أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربى على أعجمى، ولا لأعجمى على عربى، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى».

والنبى ﷺ لا يتكلم إلا بعد ان يكون القدوة والاسوة فى العدل والمساواة ..

يصعد ﷺ المنبر ذات يوم ويخطب فى الناس قائلا:

«مَن كنت أخذت منه مالا فهذا مالى فليأخذ منه .. ومَن كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهرى فليقتد منه». الطبرانى فى الأوسط.

المساواة عند الصحابة ..

تجلى مبدأ المساواة فى حياة الصحابة عندما تقلدوا الخلافة ونادوا بتواضع وخضوع: أن لا فرق بين حاكم ومحكوم فى الحق كما علمهم النبى ﷺ.

وعندما يتولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه الخلافة يقف خطيبًا فى الناس:

«**أيها الناس إنى قد وُليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى . . الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله**».

وهكذا تستقيم البلاد ويستقيم العباد . .

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يرسل إلى أبى موسى الأشعرى بميثاق القضاء بين الناس عندما ولاه القضاء . . فيقول له عمر:

«**. . . آسِ بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف فى حيفك** - ميلك - **ولا ييأس ضعيف من عدلك**» كلمات توزن بميزان الذهب .

ويدلل عمر رضي الله عنه على كلامه بالدليل العملي الواقعي . .

يأتى شابان إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقودان رجلا من البادية فقال عمر: ما هذا؟ قالوا: يا أمير المؤمنين هذا قتل أبانا.

قال عمر رضي الله عنه: أقتلت أباهم؟ قال: نعم قتلته . . فقال عمر: فلم قتلته؟.

قال الرجل: دخل بجمله فى أرضى فزجرته فلم ينزجر فأرسلت عليه حجرًا فوقع على رأسه . فمات

قال عمر: القصاص . . «الإعدام . . حكم نهائى لا مجال لمناقشته لأنه حكم الله تعالى . .».

«لم يسأل عمر عن أسرة هذا الرجل . .عن قبيلته . . هل أسرته قوية أو غنية . . ما مركزه فى المجتمع . . كل هذا لا يهم عمر . . . لا محاباة فى دين الله، ولا في حدود الله، ولو كان القاتل ابنه لاقتص منه . .».

قال الرجل: أسألك يا أمير المؤمنين بالذى قامت به السموات والأرض أن

تتركنى ليلة واحدة لأذهب إلى زوجتي وأطفالي فى البادية فأخبرهم وأرتب لهم أمورهم ثم أعود إليك . . فوالله ليس لهم عائل إلا الله ثم أنا.

قال عمر: فمن يكفلك أن تذهب إلى البادية ثم تعود إلى؟

فسكت الناس جميعًا ولم يتطوع أحد بكفالته . . إنهم لا يعرفونه . . لا اسمه ولا خيمته ولا داره ولا قبيلته كيف يكفلونه وهى كفالة ليست فى دينار أو درهم أو ناقة أو قطعة أرض؟ . . إنها كفالة على رقبة ستقطع بالسيف.

سكت الصحابة وعمر ﷺ متأثر هل يقتل الرجل ويترك أطفاله يموتون جوعا هناك، دون أن يعلموا مصيره، أيتركه بذهب بلا كفيل فيضيع دم المقتول ويضيع حد من حدود الله . .؟.

ونكس عمر رأسه ثم نظر إلى الشابين وكأنه يرجوهما: أتعفوان عنه.

قالا: لا يا أمير المؤمنين لقد قتل أبانا ومن قتل أبانا لابد أن يُقتَل.

فنظر عمر إلى الناس وقال: أيها الناس من يكفل هذا الرجل؟.

فقام أبو ذر الغفارى ﷺ: وقال: يا أمير المؤمنين أنا أكفله.

فقال عمر: هو قتل . . قال: ولو كان قتلا . . قال عمر: أتعرفه . . قال ابو ذر: لا.

فقال عمر: وكيف تكفله؟ قال أبو ذر: أرى فيه سمات المؤمنين فعلمت أنه لا يكذب، وسيأتى إن شاء الله.

قال عمر: يا أبا ذر أتظن أنه لو تأخر بعد ثلاث أنى تاركك؟ قال: الله المستعان يا أمير المؤمنين.

فذهب الرجل وأعطاه عمر ثلاث ليال يهيئ فيها أموره ويودع فيها أطفاله ثم يأتى للقصاص.

وبعد ثلاث ليال اجتمع الناس بعد صلاة العصر بعد انتهاء المهلة، وأتى أبو ذر وجلس أمام عمر.

«**الموقف خطير**» فقال عمر لأبى ذر: أين الرجل؟ قال أبو ذر: ما أدرى يا أمير المؤمنين، وشخصت الأبصار، واستبد القلق بالجميع . . إن شرع الله

سينفذ مهما كان أبو ذر حبيبًا لعمر، فلا مجاملة لأحد فى حدود الله . . وقبل أن تغرب الشمس بلحظات جاء الرجل يجرى . . فكبَّر عمر وكبَّر المسلمون، فقال له عمر: أيها الرجل لو بقيت فى باديتك ما شعرنا بك وما عرفنا مكانك؟.

قال: يا أمير المؤمنين والله ما علَّ منك، ولكن على من الذى يعلم السر وأخفى . . ها أنا يا أمير المؤمنين، تركت أطفالى كفراخ الطير وجئت لأقتل.

دمع عمر بن الخطاب ونظر للشابيْن أبناء المقتول وقال لهما: ماذا تريان؟.

قالا، وهما يبكيان لما رأوا دموع عمر: عفونا عنه يا أمير المؤمنين . .فكبَّر عمر، وبكى كما لم يبك من قبل.

فمهما تأثر ومهما تعاطف ومهما كانت الظروف ومهما كانت المراكز فلا مجال ولا سبيل إلى تعطيل أحكام الله عز وجل.

هذه هى المساواة، وهذا هو العدل.

الإسلام لا يعرف المحاباة . . لا يعرف المجاملة . .

قالها محمد ﷺ وسنَّها قانونًا ساطعًا منيرًا . .

عندما اهتمت قريش بأمر المرأة المخزومية التى سرقت، وكانت ذات نسب وشرف وقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ ثم قالوا: ومن يجترئ على ذلك إلا أسامة بن زيد حِب رسول الله ﷺ، وكلمه أسامة، فتلون وجه المصطفى ﷺ وقال: غاضبًا: «**اتشفع فى حد من حدود الله؟!**».

فقال أسامة نادمًا: استغفر الله لى يا رسول الله، فلما صلى النبى ﷺ بالناس العشاء قام فخطب فيهم، وبعد أن حمد الله تعالى قال: «**إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها**».

الخطبة الثانية:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

إن أول مسئوليات أى دولة أن تقيم العدل والمساواة بين أبنائها حتى تقوم دولة العدل بالعدل، وليس بالقهر أو بالإذلال أو بالمعتقلات . . .

عندما أرسل أحد الولاة إلى عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين، يطلب منه مالًا ليبنى سورًا يحمى عاصمة الولاية . . أرسل إليه عمر بن عبد العزيز يقول: وماذا تنفع الأسوار؟ حصِّنها بالعدل، ونق طرقها من الظلم . .

لا بد أن تقوم الدولة على العدل والمساواة بين الناس . . هكذا أراد الله تعالى لبنى البشر.

الرسام عندما أراد أن يرسم صورة ترمز إلى العدل رسم امرأة معصوبة العينين، لا تفرق بين غنى وفقير، أو حاكم ومحكوم، أو شريف ووضيع، أو قوى وضعيف، أو سيد وعبد.

وقد روى ابن ماجه وابن حبان والبيهقى وأبو يعلى الموصلى، من حديث جابر ابن عبد الله قال:

لما عاد مهاجرة الحبشة عام الفتح على رسول الله ﷺ قال لهم ﷺ: «**إلا تحدثونى بأعاجيب ما رأيتم فى أرض الحبشة**».

قال فتية منهم: بلى يا رسول الله . . بينما نحن جلوس مرت بنا عجوز من عجائز رهابينهم تحمل قلة ماء على رأسها، فمرت على فتًى منهم فقام ووضع يده بين كتفيها ودفعها فخرَّت على ركبتيها فانكسرت قُلَّتُها . . فلما ارتفعت «**وقفت**» التفتت إليه وقالت:

سوف تعلم يا غُدَر إذا وضع الله الكرسي وجمع الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدى والأرجل بما كانوا يكسبون، سوف تعلم أمرى وأمرك عند الله غدًا.

فقال المصطفى ﷺ: «**صَدَقَتْ، كيف يقدس الله أمةً لا يُؤخذ لضعيفهم من شديدهم؟**».

نعم يا رسول الله، كيف يقدس الله أمة تفرق بين الغنى والفقير؟ وتفرق بين القوى والضعيف؟ . .

والله لو حكمنا بالعدل والمساواة لنامت الأعين وأبواب البيوت مفتحة، ولكننا ننام اليوم وقد غلقنا الأبواب وأعيننا مفتحة . . فما أحوج الناس إلى العدل . . إلى المساواة . . إلى منهج الله تعالى . .

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المَائدة: ٤٤] - ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] - ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]. .

إنها المساواة بين الناس، وخاصة فى الحدود، فلا توضع عن شريف لشرفه، أو عن قوى لقوته، أو عن غنى لغناه . .

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النِّساء: ١٣٥].

هذه هى المساواة، وهذا هو العدل:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].